حبيبتي المتعبة

قصة بقلم البرتو مورافيا

ترجمة أنور قريطي

البرتو مورافيا

« لا اعتقد اني في جاجة لتقديم الروائي الايطالي الذائع الصيت لقراء الاداب : فلقد تردد اسمه كثيرا على صفحات هذه المجلة ، كما ان دار الاداب سبق ان ترجمت له روايته الشهيرة : «السأم» التي كان قد نال عليها اكبر جائزة ادبية في ايطاليا .

يلح البرتو مورافيا في قصصه حول الجنس على الاجواء الانسانية البالغة الرحابة والتنوع والتعقيد ، والتي يعيش في مداها كل اتحاد حقيقي للمرأة بالرجل . لذلك نراه يتحرك بحيوية في مختلف قطاعات المجتمع الايطالي ـ مجتمع ما بين الحربين وما بعد الحرب الاخيرة ـ وينتقي ابطال قصصه من اصحاب الحوانيت واللصوص والنصابين والبغايا والفنانين ، من المراهقين والراشدين وحتى من الاطفال على ابواب المراهقة ، ومن المتزوجين والعزاب . وهو يتتبع حركات ابطاله الداخلية والخارجية وتموجات شعورهم ـ سواء بالازمة وعدم التوافق ام بالرضى والانسجام ـ بدقة وشمول رائعين ، ويسجلها لنا باسلوب متدفق ، دقيق ، حساس . ويمكن لمس روح الفلسفة التي تسم قصصه كلها في هذه الكلمات : « لا يمكن لاتحاد حقيقي بين المرأة والرجل ان يتم عن طريق الجنس وانما عن طريق التعاطف الوجداني ، ولكن اتحادا من هذا النوع لا يمكن له ان يتحقق ، في نفس الوقت ، بدون الجنس . »

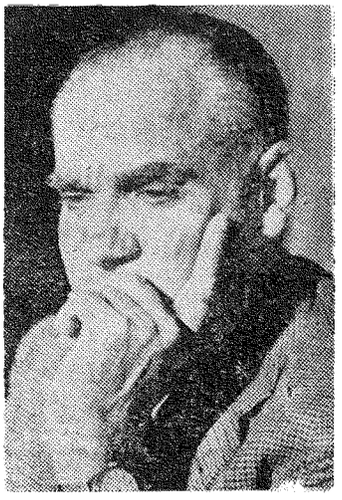

ولد مورافيا عام ١٩٠٧ في روما وبدأ في الكتابة وهو في العشرين من عمره ، بعد ان ابل من مرض قاسى منه مدة طويلة . وعندما سيطر الفاشيون على ايطاليا منعت كتبه وضغط عليه فاضطر ان يختفي عن انظارهم وبقي يكتب باسم مستعار . حتى اذا انتهت الحرب عاود الكتابة بحرية من جديد . وهو يعيش الان في جزيرة كابري وما زال يوالي الكتابة من هناك . اشهر رواياته : امرأة من روما ، حكايات رومانية ، مراهقان ، الحب الزوجي ، حفلة الملابس التنكرية ، بالاضافة الى مجموعات قصصه القصيرة التي منها : « شهر العسل المر . »

المترجم

ببطء ، اغلق الباب خلفه بضربة من كتفيه ، ثم دخل الغرفة وقد تعلقت عيناه بعشيقته .. عبر الشوارع وهو في الطريق اليها استولت على خياله رغبة متعاظمة في ان يستحضر صورة لماريا تيريزا متهدلة ، ماريا تيريزا بنهدين ثقيلين، وكرش ضخم يهتز عند مطاوي البطن، وفخذين بلا شكل كفطائر اللحم ـ لماريا تيريزا على عتبة الشيخوخة ، يسهل عليه ان يتخلى عنها . ذلك انه الان ما عاد يملك مالا كافيا ليحتفظ بها. صورة الجسد في الشيخوخة تلك، فريدة ومجسمة الى درجة اشبه بالكاريكاتير، امدته بحظ من الشجاعة وهو يسير من شارع لاخر وقد حم تفكيره وغرقت قبضتا يديه عميقا في جيوبه .

لكنه الان ادرك ، وهو جالس على الاريكة العميقة في غرفة الجلوس وعشيقته على ركبته ، ان الصورة التي استحضرها بعناية في خياله بالنظر لفراقهما القريب قد امحت تماما وهي في مواجهة الحقيقة. نفوره المفتعل من جسدها ، الذي صوره لنفسه متعبا ورخوا ، اصبح شيئا يمت الى الماضي وكذلك تخطيطه لفراق هادىء ـ « ماريا تيريزا ! لقد جئت لاقول لك ... »

فهو اليوم ، كما في اي يوم اخر ، يشعر بالرغبة فيها تتجدد فيه. لقد نظر الى رأسها الغالي بملامحه الجميلة القاسية فادرك انه كان على خطأ . لم يكن فيها ما يوحي بانها عجوز او متعبة . كان على رأسها قطعة من القماش بيضاء وناعمة وقد لفت عليه كالعمامة وبدا وجهها البيضوي من تحتها مغطى بالمساحيق . لم يكن قد مضى على خروجها من الحمام وقت طويل وكانت قد لفت جسدها الرطب بمنشفة خشنة من ذلك النوع الذي يرمى على اكتاف محترفي الملاكمة المنهكين . الا ان على وجهها الهادىء ترقرقت نظرة نصر . لامبالاتها بعريها وباي انطباع سيىء يمكن ان تحمله اليه (زحلت المنشفة من كتفها وسقطت على ركبتي عشيقها ولكنها لم تتجشم عناء ارجاعها . كل ما فعلته ان امالت رأسها واشعلت سيكارة) ـ وهو اتجاه افترق بعيداً عن حساباته البائسة حول الكهولة والشباب ، (وبدا له ان لامبالاتها الوقحة تقول : وماذا تهم السنين ؟ ماذا يهم الزمن بجسد مرغوب به بكل هذا الاجر والاعجاب؟) وعن الصورة الانانية التي حاول ان يشكلها ، لامبالاتها هذه مع ما رآه الان اشعرته باضطراب عظيم . ولم يسعه الا ان يفكر نادما وهو يضم اليه بنهم ضلوعها الفاترة : « هذه اخر مرة آتي لاراها . » .

ومع انه ما كان ليعترف بالامر حتى لنفسه فقد كان على استعداد ان يحبها اكثر ، اكثر بالاف المرات . ومن كل قلبه ـ رغم انه حب ممزوج بالاشفاق (انت كبيرة يا عزيزتي البائسة ماريا تيريزا ، الا انك ما زلت محتفظة بي) ـ لو احس بان تحت اصابعه القلقة لحما رخوا اكثر وجلدا اشد ذبولا وقد فقد رواءه . كان حبه كله جديرا بان ينهمر على امرأة يستطيع ان يبقيها ، رغم انه سيشعر بشيء من القرف ـ على ركبته وقريبة من صدره . صحيح، ان ثدييها كانا يحاولان مع كل شهيق ان يستعيدا الشموخ الذي سلبتهما اياه السنون وان وركيها القويين الريحيين خدرا ركبتيه ، وان ظهرها المكتنز ، صحراء اللحم العتيقة ، ما عاد يقسمه اخدود العمود الفقري ، الا ان هذا كله اكد له من جديد ان المرأة قد جاوزت شبابها . « لقد انتهت ماريتي . » هكذا خطر له وهو يحدق فيها . « لقد انتهى الشباب والجمال بالنسبة لها . » ولكنه عندما رفع عينيه عن الجسد الجالس على ركبته ووقع بصره على الوجه الثابت القاسي تحت غشاوة المساحيق اللامعة ارتاب بعينيه ، وملاته فكرة ترك هذه المرأة ، التي ما زال عشاق كثيرون يشتهونها ، بغضب جشع وطفولي .

اخيرا قال لها وهو يدفعها عنه مشبعا وتائها : « لقد حان الوقت لنخرج . ارتدي ثيابك » . فنهضت في الحال وهي تحيط نفسها بالمنشفة بحركة مسرحية . ثم قالت بعد برهة : « لا . لن إلبس. سناكل

هذه الليلة عندي في البيت .. كذلك .. فانه .. ان عندي ما اقوله لـك . »

كانت الان تبتسم بشكل يوحي انها راضية عن نفسها ، نفـس الابتسامة المرتبكة المخادعة التي كان ممكنا ان ترسمها لتقطع الطريق على نوايا عشيقها ، وان تكون هي التي تقول كلمات الطرد . وسألها الشاب الذي ارتبك رغما عنه عما حدث ، فترددت ثم اقرت بانها تتوقع مكالمـة هاتفية بالغة الاهمية . وقال لنفسه : « وصلنا اذن . » ولم يسعه-الا ان يفكر كما لو كان في خوف مميت من ان يطرد على يد العشيقة التي خطط هو لتركها . سألها بعد فترة صمت عمن سيقوم بالمكالمة . فاجابته، وهي ما تزال مترددة ، بانه رجل احبها حبا عظيما في الماضي . متى ؟ منذ سنوات بعيدة ، الا انها قابلته البارحة في الطريق فتعرف احدهما الاخر وتحدثا عن ايامهما الماضيات . وفهمت انه قد صار على جانب من الغنى ، لكنها لم تعرف اذا كان ذلك قد تم عن طريق الميراث ام عن طريق جهوده الخاصة . غير ان الشاب توقف عن الاصغاء الان وعاد مرة ثانية نهبا لغيرة حزينة مخبولة . وفكر : انه كانت هناك ماريا تيريزا اخرى ، صبية صغيرة ورقيقة ،بدون تلك الابتسامة المتعبة والمنشقة التي تزحل باستمرار ، وان رجالا اخرين قد طارحوها الغرام قبله.

سمع الباب يغلق فاجفل . لقد تركت المرأة الغرفة . وبقي الدقائق العشر التالية دون ان يتحرك او يحدث صوتا وهو نهب لشكوك مبرحة.

رجعت تحمل اواني الشاي . واستمر الصمت اثنـاء ترتيبها الفناجين وابريق الشاي والبسكويت على الطاولة . ولم يستطع الشاب ان يمتنع عن الابتسام ، الذي ارتسم على وجهه خلافا لارادته ، فقـد ايقظت فيه حبا من نوع شاذ رؤيتها وهي تولي كل هذا الاهتمام الدقيق لكل حركة . لم تعد عشيقة بل سيدة بيت . عندما سألته عن المقـدار الذي يريد من السكر شعر فجاة برغبة في ان يعانقها . واجابهـا بعصبية : « قطعتان ، قطعتان يا حبيبتي . » حرارة الشاي اذابت البرودة التي دبت اليه . قضم الخبز المحمص وبلع جرعا كبيرة من الشاي الغالي، وطيلة اكله وشربه ابقى عينيه على بدن المرأة وهي محنية على ابريق الشاي المتصاعد منه البخار . وهكذا تبخر قلقه الغيور في صمت مثلما تتبخر الرطوبة من معطف مبلل منشور ليجف فوق مدفأة .

هبط عليهما الظلام قبل ان ينتهيا من رشف الشاي .وبقيا ساكنين صامتين في ضوء الشفق الشاحب وعيونهما متعلقة بالفناجين الفارغة . ثم نهضت ماريا تيريزا واشعلت مصباحا . جلست قرب التلفون حيث سيطل الصوت القادم من صباها ، كأنه قادم من كهف « سيبيل » المظلم. ونهض الشاب وطفق يدور في الغرفة . في احدى الزوايا كانت ثمـة خزانة كبيرة . وقد فتح بشرود درجا والقى نظرة لامبالية على محتوياته، فرأى وجوها كثيرة مركومة مبعثرة مثل حزمة من ورق اللعب بعـد ان انتهت اللعبة وسويت الحسابات . وفجأة ، شعر بالاهتمام ، فجلـس بجوار الخزانة واخرج رزمة من الصور الباهتة وتمتم : «حسنا ! حسنا!» ثم اكمل وهو يتأمل المرأة من فوق الى تحت : « لقد كانوا كثيرين .. هؤلاء الذين سبقوني . »

لم تند عن المرأة كلمة او اشارة توحي بان وقاحته قد ضايقتها ، بل بقيت تنظر اليه بهدوء وبدون انفعال ، مما آله مثل فولاذ حاد يسبر جرحا متلبدا . وفكر محنقا « ما كان ينبغي ان تكون هادئة الى هـذا الحد ، اي واحدة غير ماريا تيريزا كانت تختطف الصور وتغلق عليهـا الخزانة . » كل تلك الوجوه الميتة حملقت فيه بالنظرة المقلقة لمساجين افرج عنهم اخر النهار بعد حبس طويل . لم يكن ثمة من معنى لقبرهم في الخزانة ، ولا في الذاكرة .اما الان وقد عادوا الى الحياة فيجب ان يبدوا لها غير منفصلين عن الوقت البعيد ، وقت ناموا الى جوار جسدها الفتي . لقد امسكهم الشاب جميعا بيديه الساخرتين ،السنين والرجال، الذين اتهموها . بماذا ؟ بانها لم تعد الفتاة الصغيرة التي كانتها مرة . الشهود والقاضي وكل الاشخاص المطلوبين موجودون ، ومن الممكن ان تبدأ المحاكمة .

ايتها السجينة : هل تعرفين هذا الرجل ؟ عندما قابلته كنت في الثامنة عشرة . كان شعرك مجمعا على ام رأسك ومنسدلا على حاجبيـك المكشوفين . ياقة عشيقك المنشاة هيجت عنقك وذقنك . صدرك الفتي الرائع دفعه مشد من عظم الحوت فاندفع ورديا تحت قميصك المخرم . كان بدنك يتقوس وينحنى بمرونة تحت خطوط القميص الحلزونية.وكانت لك طريقة متعالية في المشي ، ولم يكن بوسع العين المتفحصة ان تغامـر اعلى من حذاءيك المزررين فوق الكعبين . ولكن وسط الازهار ودخـان التبغ في الحفلات الموسيقية ، وصوت المكان كان الحزين الخادع، كانت الراقصات يرفعن على الايقاع سيقانهن المغطاة بالجوارب السوداء الطويلة، يرفعنها حتى جباههن ، بربطاتها الحمراء وغربولها المرغـي والموسوس كالزبد ، غربول ما كان ينبغي ان يكون عميقا جدا او سميكا جدا حول افخاذهن . لم يكن على وجهك اثر للمساحيق ، وكانت وجنتاك تحمران كالزهرة حينما تخجلين . لم يكن على شفتيك طلاء ، بل كانتا متالقتين ومزمومتين ومثيرتين للانتباه . لم يكن على عينيك مرهم ولا رمـوش اصطناعية ، بـل كانتا بريئتين وعند اقل تعب تحوطهما دائرتان تفشيان السر . مع هذا الرجل رقصت رقصة الوولس الاخيرة ورقصة التانجو الاولى . ثم ماذا عن هذا الرجل ؟ وهذا ؟

اخرج الشاب بعض الصور وطفق يعرضها على المرأة ويلح فـي السؤال عن الاسماء والمواعيد ، كما لو كان دليلا يدين سجينا يرفـض الاقرار باشتراكه في الجرم . اما هي فقد اشبهت سجينة فـي قفص الاتهام وهي تشرئب بعنقها وتركز نظرتها على هذه الوجوه المنسية،متفحصة التقاطيع الباهتة وذاكرة الاسماء بصوت متضايق ضاجر . وفكرت : «ب» كان ممثلا مسرحيا وهو الان يعمل في السينما . اما الاخر فكان «كونتا» وقتل في الحرب . اما « س » فكان صاحب مصرف وقد خسر وقتهـا ومات ايضا . واخيرا اشار لرجل بدين له حواجب كثيفة ويرتدي سترة غبراء . « من يمكن ان يكون هذا ؟ خادم في مطعم ؟ »

للمرة الاولى التمع شعاع عاطفة من خلال برودها وجمودها .وقالت له بحماس : « كان هذا احد وجهاء ميلانو واغنى واحد فيها . لقـد اعطاني دارة (فيلا) . » . ثم تابعت حالمة : « كانت دارة جميلة بطابقين وحديقة . » ونظرت امامها بعينين تائهتين كأنها تستطيع ان تستعيـد صورة مسكنها السابق حجرا حجرا . وتابعت بعد برهة صمت كما لو كانت تتحدث الى نفسها : « اجل كان ممكنا ان اكون الان غنية لو احتفظت بكل ما اهدي الي . » لم يقل الشاب شيئا ، فقد بدا له فظيعا ان تشعر بالحسرة . وخطر له انها عاشت حياة كاملة وان كل ما في وسعها الان هو ان تتحسر على اموال سبق ان تمتعت بها جيدا ، وتندم على انها لم تكن حريصة وبخيلة . وراقبها تنهض متمتمة : « ما ابرد الجو ! » ثم تسير ، وقد ارتجف جسدها كله ، نحو المدفأة وتدير ظهرها اليها . سجينتي ! اعندك ما تضيئين ؟ لا شيء ؟ اذهبي اذن . اذهبي اذن.انت مدانة . مدانة ان تكبري ويصبح لك تجاعيد وشعر اشيب ، وان تفقـدي عاطفتك وتتجمد ذكرياتك . لقد انتهى كل شيء حقا ـ المنازل والعشاق والحفلات والملابس والابتسامات ، وماريا تيريزا تغوص في دماء ماضيها مثل سفينة في الليل .

شرع يفتش من جديد في الخزانة . وجد بعض الرسوم اليـابانية التي جعلها جمودها البذيء تبدو اقرب للطقوس ، بعض رسوم داعرة من التي تباع في الموانىء والضواحي المشبوهة في المدن الكبرى ، بطاقات بريدية مصورة قديمة لشوارع وساحات في باريس وبرلين وفيينـا وبطرسبرغ مع الناس الذين اصيبوا بعد عدة سنوات بالجنون او دمروا او ذبحوا او تبعثروا ، وقد التقطت لهم الصور وهم في زهرة حياتهم ، يتمشون على الارصفة بقبعاتهم الصغيرة ومظلاتهم وحناتيزهم . اخيرا ، كانت هنالك رزم ورزم من الرسائل الغرامية ربطت بشريطة بهت لونها. وكانت الكتابة ما تزال ذات مظهر متفطرس ، الا ان الحبر بهت ولم يـر النور منذ زمن طويل . القى الشاب نظرة عاجلة على تلك الاشياء،اما ما اخذه وراءه في يده فكان مسدسا صغيرا من الفولاذ المتكل والصدف.

سألها : « وهذا ، ما الذي يفعله هنا ؟ »

اجابته : «لادافع به عن نفسي . » كما لو كان ذلك اكثر الامـور

بداهة . ثم تابعت بعدبرهة باستسلام ورضى وهي تزيح فوهة المسدس التي قربها من جبهتها مازحا : « انا على يقين من انـــي سانتهي نهاية عنيفة . » تكلمتكما لو كانت تعني ما تقول . لقد كان خيالها الـــراكد المخدوع ـ الذي تملكه مغامرة ـ يداعب فكرة مأساة عصرية تمثل بيـــن جدران اربعة . هذا ما بقي ـ نهاية قصة بوليسية .الفجر في غرفة فندق من الدرجة الثالثة . الاثاث مرمي في كل انحاء الغرفة . السرير المهوش مبتل بالدم . تؤخذ البصمات . الهواء الخانق من جراء رائحـة العطر والنوم والموت . ثمالقصة القصيرة في جريدة ـ هكذا ستنتهين.

بينما قالت هذا كله كانت عيناها تتنقلان بين الشاب والمســدس مشعتين وفاتنتين كما لو كانت تريد ان تغوي الموت نفسه . ثم امسكت عن الكلام عننفسها وحدثته عن صديق لها قتل في ملابسات غامضةمنذ سنتين . ثم انتهت باسى ورأسها منحن وعيناها تتأملان جسدها وقالت متأوهة : « هكذا ستكون نهايتي ايضا. »

لكن الشاب طفق يضحك وصاح : « اي فكرة سخيفة،يا ماريتي !» ثم رمى المسدس في الخزانة وجلس بجوارها واضعا يده على خصرها . وتابع بخبث مؤكدا : لا لن تموت موتا عنيفا . ستموت في سريرالشيخوخة والمرض . انها ليست فتاة مصيرية ولا ينبغي ان تخدع نفسها بانهـا كذلك . ان نساء من ذلك النوع لم يعد لهن وجود الا على الشاشة .

حينما انتهى من توجيههذه الكلمات القاسية اليها ، حـاول ان يعانقها ولكنها دفعته بتصميم ، متمتمة من خلال اسنانها المطبقة ، غيـر مخفية نفورها : « انت تتصرف الان كالوحش . » ثم نهضت وذهبـت لتحضر قنينة كونياك وكأسا . وردد مرة ثانية : « عجوز ووحيدة » فرآها تهز كتفيها بدون اكتراث . وتنزع الفلينة وتصب في الكأس رافعـة حاجبيها مرخية جفنيها لتحمي عينيها من دخان السيكارة العالقةبشفتيها. في هذه اللحظة تم ا رن جرس الهاتف .

وضعت الكأس مهملة ورفعت السماعة ، غير انها سألت باستعجال: « من ؟ » وخرج صوتها محملا بالخيبة وهي تقول : « اوه ! سكرتيره ؟ » ثم انصتت صامتة متطلعة فيما حولها بقلق وفضول كأنها تفتش عنالعذر الكاذب في شروحه . وسألت اخيرا : « هل تعني اني لن استطيع ان اتكلم معه ؟ ولا لدقيقة..دقيقة واحدة ؟ » ولكن كان واضحا ان الشخص على الطرف الثاني قد اغلق الخط . مرة ثانية قالت : « فقط لدقيقة » ثم وضعت السماعة متهملةحالة وهي تنظر امامها بصورة مستقيمة .

سألها الشاب : « حسنا ، هل حصلت على ما تريدين ؟ » فحدقت فيه بفضول كأنها تراه للمرة الاولى ولم تجب . كان ما يزال في الكأس بقية فرشقتها وتفحصت القعر . ثم نهضت وهي تقول ببطء : « ينبغي ان اذهب واحضر العشاء . » وتركا غرفة الجلوس المليئة بالدخان،الواحد منهما خلف الاخر .

في الممر المظلم امسكها من كتفيها وجرها اليه وقبلها . وخطر لـه انها استجابت له وردت القبلة ، أن لم يكن بحب فبشهوة على الاقل كما لو كانت بحاجة الى المواساة والى العودة للاستجابة التي سبق انعرفتها جيدا . حتى انه خيل اليه انها ارتعشت . ولكن عندما وصلا المطبخرأى انها انحنت فوق المدفاة واشعلتها بوجهها القاسي .

كانت هذه المرة الاولى التي يأكلان فيها في الشقة . وكان الشـاب الذي لم تكن عنده فكرة عن مهارة ماريا تيريزا المنزلية يتوقع عشـاء يشتريانه من الدكاكين . وعلى هذا فقد ادهشه ان تجشم نفسها عناء الطبخ . ظهر له ان المطبخ نادر الاستعمال . لم تكن ثمة بقع او شقـوق على الجدران المبلطة. ولم يكناثر للدخان على المدخنة. وبدا انالمدافىء الثلاث لم تشعل ابدا . ولاح له ان الملح والفلفل والسكـــر والقرفة والزعفران لم تؤخذ من اوعية البورسلين المصفوفة على الرف ، ولا من اواني البرونز والالومنيوم حيث تألقت مثل قبعات على حامل للقبعات. كانت غرفة المطبخ عذراء وجليدية . وكنت تستطيع ان ترى ان المنـزل يهجر دائما في اوقات العشاء . صاحبته في الخارج على الدوام ، ولـم تكن هنالك طاهية او خدم . كان مطبخا نموذجيا من النوع الذي يرى في واجهات حوانيت الاثاث المنزلي ، كل ما كان ناقصا الطاهي الآلي،بمنظره الجانبي المهيب وعينيه الجليديتين وهو ينتقل من موقد لاخر بخطواته القصيرة المبتسرة .

على كل حال ، فقد اعدت ماريا تيريزا العشاء بدون عون وبرصانة تامة وحركات دقيقة خبيرة كشفت عن تجربة صاحبتها . حساء بقول ، شريحة من اللحم مقلية مع قطع من الخبز والسبانخ والبطاطا ، الىجانب شوكولا مجمدة كانت قد وضعتها في البراد منذ الصباح . وجلس الشاب التائه الى الطاولة ذات السطح المرمري وسط المطبخ الابيض النـــاصع البياض ، وتأملها وهي تشتغل على المواقد ، مشمرة الاكمام وقد تصلب وجهها وانهمك اكثر من اي وقت مضى . راقبها تأخذ شيئا من الملـح وترميه بعناية في الحساء ، ثم تذوق الحساء براس الملعقة الخشبية التي رفعتها الى شفتيها المنفرجتين ـ نفس الشفتين اللتين استسلمتا لهمنذ دقائق في الممر ـ وبين الحين والاخر ، في اثناء تلك الحركات العملية ، كانت المنشفة المربوطة باستعجال تنحل من الامام تماما . وعندها تكون امرأة عادية منحنية على الاواني ، المغرفة بيد والشوكة باليد الاخرى ، كاشفة ثدييها للبخار المتصاعد من الطعام بينما كان بطنها يتلون بلـون اللهب الاحمر .

كان المصباح المعلق وسط الغرفة يلقي ضوءه على البلاطات المتألقة التي عكست صورته وكانت الغرفة مكعبا من النور الابيض في داخلـه عاشقان مثل جثتين محفوظتين جيدا في كتلة من ثلج المدافن . في هذه الجوانب الاربعة تحركت ماريا تيريزا جيئة وذهابا بينما كان الشـــاب يراقبها من على كرسيه الى الطاولة المرمرية السطح . كـــان متحيرا ومدهوشا . ومن وقت لاخر كان يطامن رأسه يتأمل ارض المطبخ ذات البلاط المعين الشكل ويشعر انه على رقعة الشطرنج هذه قد اضاعملكته ذات الوجه الجذاب القاسي الملامح . وقال لنفسه انه ليس ساعيبريد ولا بوابا وانه يستطيع ان يسكب جرعة منعشة وان يجر الطاهية كلها ، بالمغارف والمئزر الذي عليها ، الى حضنه . هذه المرأة لم تكن تلك التي احبها . غير ان ماريا تيريزاجلست الان الى الطاولة . وقد ظهر عليهـا التباهي بمهارتها في الاعمال المنزلية .

اكلا في صمت من غير أن ينظر احدهما الى الاخر. وقال لها اخيرا ان المرء ليظن حينما يراها تطهو انها لم تقم في كل حياتها بعمل اخر . وقالت له بفتور : « لقد قمت باشياء كثيرة . » وبقيت تنظر الى الطبق الذي بين يديها . انفتحت المنشفة مرة ثانية ورأى ثدييها يهتزان مع كل حركة كأنما دبت فيهما حياة خاصة .

مر وقت صمت اخر طويل ثم قالت اخيرا وهي تمسح فمها بالمنشفة وتضعها ثانية على فخذيها العاريين : « قلت لك ان ذلك السيد الـذي تكلمت معه في الهاتف اعتاد ان يحبني كثيرا .. والحقيقة انه كان الاول ... كنت في السادسة عشرة .. » حين سمع ما قالته شعر الشاب از الغيرة التي عانى منها منذ فترة قد تجددت فيه ولكنها امتزجت هذهالمرة بشعور حزين ومر بالشفقة . كان صحيحا اذن ، ان ماريا تيريزا قـد ضحكت في الماضي ، وبكت ورقصت واحبت وتمتعت بايام شبابها الفر .. طفقت الان تجمع فتات الخبز باصابع مترددة وبدا انها متعبة .

وتابعت كلامها : « انه غني جدا ولكنه يرفض ان يعطيني حتى المال القليل الذي اطلبه منه . » كانالشاب ينظر اليها وشعر بانه ينبغيعليه ان يهتز ، الا انه لم يعرف بالضبط المصيبة التي سيهتز لها . وسألها اخيرا بلطف : « هل انت في حاجة الى المال الى هذا الحد ؟ » وعلا التو انفجرت في ضحكة عالية وجافة ومحملة بالتبكيت .

« هل انا في حاجة الى المال . ؟ بالطبع انا بحاجة اليه .. جدا.

وسألها باصرار : « ولكن لماذا ؟ التشتري ملابس ام لتسافري ؟ »

ورآها تهز رأسها مرتبكة بعض الشيء . لا ! كان المال يعوزها لتترا المدينة وترتاح في الريف . اتعبتها الحياة على هذه الصورة الفوضوية محوطة باناس كثيرين . ارادت ان تكون في بلدة صغيرة لوحدها ـ وا لا تكون البلدة التي ولدت فيها ؟ ـ ان تعيش لوحدها في منزل صغير

يحتوي على غرف قليلة وحديقة . وبينما كانت تتكلم امالت رأسها وحكت كتفها العارية بخدها .

هنا قاطعها بابتسامة دهشة وقال لها : «حديقة ؟ وزهور ايضا ؟» واجابته : « نعم . وزهور ايضا بالطبع . لماذا ؟ » قال الشاب : « بدون سبب . » ثم نهض وشرع يدور في الغرفة . قالت : « ولكنه غير راغب في ان يعطيني المال . » ثم اكملت كلامها بصوت حاد مرتعش : « لهذا ساضطر ان اتخلى عن المشروع . »

انتهى العشاء . فنهضت ماريا تيريزا بدورها . وجمعت الاطباق ورمتها بضجة في حوض الحنفية . ووقف الشاب محزونا مراقبا المرأة التي كانت ، بدون ان تغير من مظهرها المنهمك ، تنظف اسنانها باظافرها الحادة الطويلة وتحدق من غير نفور في اندفاع الماء الساقط على الاطباق القذرة وهو يزيل الشحم المتجمد وبقايا العشاء الاخرى من على الاطباق الجميلة .

بعد ذلك ، اثناء الليل ، وعى انها استدارت الى الطرف الاخر من السرير وانها تجمعت على نفسها كما لو كانت تريد ان تنام . لهذا قال لها : انه يتمنى لها نوما هنيئا ونهض ليذهب . لقد كانت له طيلة الشهرين الماضيين . غير انه الان بعد ان نفدت منه النقود ، كان مضطرا ان يفارقها . ولكنه حينما كان يحرر نفسه من طيات الشراشف ادرك فجاة انها تبكي . لم تكن متجمعة على نفسها بل مستلقية على ظهرها وذراعاها على عينيها كطفلة صغيرة . وحال الظلام بينه وبين ان يرى دموعها ، الا ان شعاعا من الضوء تراقص على التكشيرة الطفولية الكبيرة التي قلصت زوايا فمها . كانت تبكي بصمت ، بدون ان تنشج وكانت دموعها تسيل مثل الدم المتدفق من جرح مميت .

حدق فيها . ثم انحنى عليها وازاح ذراعيها من على عينيها وسألها عن سبب بكائها . واجابته ان : « لا شيء » . ليس لبكائها من سبب . كانت فقط تفكر في تلك المكالمة الهاتفية . ثم رآها تسند رأسها على كتفيها بايماءة محملة بالاسى والتسليم ، وسمعها تردد بعناء يائس : « لا شيء .. لا شيء .. » ثم بعد برهة اغمضت عينيها ثانية وقالت بمرارة كما لو قبض عليها في زاوية شارع ما وهي تشير بيدها الى السابلة : « ولكنه صعب .. صعب ان تضطر الى الاستجداء لتعيش . »

لم يعرف الشاب بم يجيب . فحدق في وجهها الذي تصلب وتماسك فاشبه منظرا جانبيا لوجه مرسوم على مدالية كبيرة ، وفي كتفيها البيضاوين البدينتين تحت خصل الشعر المهوشة على عنقها . واذ رآها هادئة الى هذا الحد دخل في روعه انها لم تتكلم ابدا . وارتاب بشهادة عينيه واذنيه فاحب ان يراها مرة ثانية تبكي وان يسمع صوتها المنتحب . واحس ، وهو يحدق فيها ، بانه ينظر الى وجه الوجود نفسه ، الذي يكشف نفسه ويتكلم لبرهة ثم يصمت ويسكن من جديد . لم تطل تأملاته . فقد نهض ، وان يكن بصعوبة ، وذهب الى الحمام ولبس ورجع على رؤوس أصابعه وقال بصوت عال : « انا خارج يا ماريتي . الوداع . » فاجابته بدون ان تفتح عينيها : « اراك غدا . »

ترك الغرفة ثم الشقة ونزل الدرج وتردد وهو يصغي الى جرس كنيسة قريبة يدق وسط الصمت المطبق على الحارة الخالية . وفكر : العاشرة والنصف . ما زال ثمة وقت للذهاب الى السينما . راقت له الفكرة . ثم شعر بالحماس لها بدون ان يعرف السبب . لقد احس بشوق حارق الى الظلام في صالة السينما بمغامراتها السهلة ومشاهدها النائية . واخيرا قال لنفسه بطريقة استنتاجية وليقهر القلق الذي استولى عليه : « لتذهب ماريا تيريزا الى الجحيم . » ثم اغلق الباب الامامي خلفه وانطلق نحو مركز المدينة .

حلب ـ اعزاز

ترجمة انور قريطي

صدر حديثا عن :

منشورات عويدات

غ.ل.

- **الناعقون (رواية لبلزاك)** ٥٠٠
  قدم لها وراجعها الدكتور شكيب الجابري
- **قوت الارض لاندريه جيد** ٣٠٠
  مراجعة الدكتور شكيب الجابري
- **بيروت والنافذة البيضاء (شعر)** ٢٥٠
  هشام الكرمي
- **الهندسة والمهندس** ٨٠٠
  للمهندس محمود الشكرجي
- **الضمان الاجتماعي ـ اندريه جيتنغ** ٢٠٠
- **التخلف المدرسي ـ اندريه لوغال** ٢٠٠
- **دراغانا ـ رواية** ٢٥٠
  تأليف محمد برجاوي

●

تاريخ الحضارات العام
احدث موسوعة حضارية

١ ـ الشرق واليونان القديمة ٢٥٠٠
٢ ـ روما وامبراطوريتها ٣٠٠٠
٣ ـ القرون الوسطى (تحت الطبع)

●

قريبا جدا :

آفاق الفكر المعاصر

تأليف نخبة عالمية معاصرة من اساطين الاختصاص تتناول جميع ميادين المعرفة في اكثر من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير
الثمن ٢٠٠٠ غ.ل.

منشورات عويدات

ص.ب. ٦٢٨ بيروت ـ لبنان
تلفون : ٢٤٢٦٦٠